Social and Cultural Transformations in Oman via the Novel (Ladies of the Moon) by Jokhah Al-Harthy

prof . Dr Sabah Abdul Redha Esaywad.
the University of Basrah
Basrah and Arab Gulf studies center
E-mail: sabahalbasher@yahoo.com

Abstract:

The Gulf novel in general and the Omani novel in particular, tended to open up to the phenomena of social, political and economic transformation that pervaded the entire Gulf region. The novel (Ladies of the Moon) turned to the womb of these transformations in the Sultanate of Oman to reveal the Omani reality and delve into its negative aspects, especially in the treatment of women and the surrounding customs and traditions that frustrate the trends of women who tried hard to build a perception and a new life, but were fighting the windmills and currents of society Which clings to outdated phenomena such as the phenomenon of slavery and slavery, which disappeared a while ago and became part of its history, but it continued to strike its tricks in the Omani society, which took confident steps towards reconstruction and cultural transformation, but the family nakedness still tends towards what has settled in the souls and finds it very difficult To put him aside from her life.

Key words: Transformations, Ladies of the moon, Jokhah Al-Harthy, Oman.

التحولات الاجتماعية والثقافية في عمان من خلال رواية (سيدات القمر) لجوخة الحارثي

أ.د.صباح عبدالرضا إسيود
جامعة البصرة / مركز دراسات البصرة والخليج العربي
E-mail: sabahalbasher@yahoo.com

الملخص :

مالت الرواية الخليجية عموما والرواية العمانية على وجه الخصوص إلى الانفتاح على ظواهر التحول الاجتماعي والسياسي والاقتصادي التي عمت المنطقة الخليجية برمتها. وقد اتجهت رواية (سيدات القمر) إلى رحم هذه التحولات في سلطنة عمان لتكشف الواقع العماني وتغوص في سلبياته ولا سيما في معاملة المرأة وما يحيط بها من عادات وتقاليد محبطة لتوجهات المرأة التي حاولت جاهدة أن تبني تصوراً وحياة جديدة، ولكنها كانت تحارب طواحين هواء المجتمع وتياراته التي تتمسك بظواهر قد عفا عليها الزمن من قبيل ظاهرة الرق والعبيد التي اندثرت منذ مدة وصارت من حيثيات تاريخه، ولكنها ظلت تضرب بأخدعيها في المجتمع العماني الذي خطا بخطوات واثقة نحو الإعمار والتحول الثقافي ولكن عراه الأسرية ما زالت تجنح نحو ما استقر في النفوس وتجد صعوبة بالغة في تنحيته جانباً من حياتها.

الكلمات المفتاحية: التحولات، سيدات القمر، جوخة الحارثي، عمان.

المقدمة :

قد يبدو من الغريب أن تتوجه بعض الروايات الخليجية في الألفية الثالثة إلى استجلاء الواقع الاجتماعي والثقافي في الحقبة الأولى من انطلاق التحديث في المجتمعات الخليجية المعاصرة بعد أن طوى الأدباء العرب صفحة هذه التجليات منذ مدة ليست بالقصيرة. إذ يمكننا الإشارة إلى تجربة الأدباء العرب من أمثال نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويوسف إدريس الذين ركزوا في أعمالهم الأولى على جوانب انبعاث الأمة وما ألمَّ بها في تجاوز مراحل الظلمة التي ربتت على قلوب الشعوب العربية وصدور أبنائها مدة طويلة من الزمن.

بيد أننا وفي بدايات حقبة الألفية الثالثة بدأنا نجد بعض الروايات الخليجية ترصد حيثيات انطلاق الواقع الاجتماعي والثقافي وما اعتراه من تغيير مسَّ بنية المجتمعات الخليجية وبصفة خاصة قبل حقبة النفط وما رافقها من حياة بسيطة تعتمد على حياة الناس البسطاء وقصصهم. وقد أشار بعض الدارسين إلى أن النص الإبداعي العماني لم يقف " بمعزل عن التحولات التي جرت في المنجز الخليجي والعربي حيث تفاعل مع هذه التحولات نتيجة انفتاحه على الآخر. وقد تزامنت هذه مع جملة تحولات شهدتها السلطنة على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي فكان لا بد من رصدها"[١]. أقول هذا الكلام ولا أقصد رواية (سيدات القمر) للكاتبة العمانية جوخة الحارثي فحسب وإنما هناك أكثر من رواية خليجية توجهت إلى عرض هذا المنحى في الخليج ومنها – على سبيل التمثيل – رواية (غراميات شارع الأعشى) للكاتبة السعودية بدرية البشر التي عرضت لنا الحياة الاجتماعية والثقافية التي عاشتها المملكة العربية السعودية قبيل ظهور النفط وفي إثنائه، ومن ثمَّ انعكاسات تغيير الحياة الاجتماعية في المملكة على الواقعين الثقافي والاجتماعي، مما رصدناه في دراسة سابقة اختصت بجوانب التحديث وبداياته في المملكة العربية السعودية من خلال هذه الرواية[٢]. ولعل ذلك يتفق والسمات الجوهرية للأعمال الفنية التي حددها مارتن هيدجر عندما وجد أن للعمل الفني سمتين جوهريتين وهما أن العمل الفني ينشئ عالما أو يجمع شتاته، وكذلك فإنه يمهد الأرض له[٣]. وهنا تجمع الروائية جوخة الحارثي شتات المجتمع العماني وتمهد لنزعة إنسانية أكثر تسامحاً مع تيارات تبدو راسخة وتجد من الصعوبة بمكان مواجهتها والحث على تجاوزها بعد أن ضربت بأطنابها في صميم المجتمع.

وكما يظهر أن تجليات التحولات التي ألمت بمجتمعات الخليج لم تظهر لتعلن عن نفسها في النتاج الأدبي الخليجي كما ظهرت في النتاج العربي؛ مثلما هو في مصر والشام والعراق والمغرب العربي لأسباب عدة؛ ومنها إن هذا النتاج قد تأخر بالظهور عن غيره العربي أو أن هذه التحولات قد تراكمت سريعا بفعل التحولات السريعة ولم يستطع الأدباء ملاحقة تفاصيلها بالسرعة الممكنة أو أن هذه التحولات تمثل الأرضية القومية والوطنية التي لابدَّ من أن ترصد وتظهر لتتعرف الأجيال الجديدة على المعاناة الطويلة والأليمة

التي مرّت على مجتمعات الخليج قبل أن تتحول هذه المجتمعات من مجتمعات بدوية وتعيش الكفاف إلى مجتمعات تمت بصلات قوية إلى الحداثة بعد أن قطعت أشواطاً طويلة ووصلت إلى مصاف متقدم. وقد أشار الدكتور الرشيد بو شعير إلى الهواجس التي انتابت الروائيين الخليجيين فوجدها تتمثل في هواجس اجتماعية وسياسية محلية كهاجس صراع الأجيال وهاجس الهوية وهاجس تحرير المرأة وهاجس التشظي الناتج عن التحول السريع من النمط الثقافي القبلي إلى النمط الثقافي العولمي(٤). وذلك ما لم نستطع تجاوزه ونحن نرصد التحولات التي شملتها رواية (سيدات القمر) والتي ضمتها تحت كنفها. إذ تتكرر هذه الهواجس في بيئات الخليج العربي مع المحافظة على الإقليمية بين بيئة وأخرى، وهو ما يدعو إلى التأني في دراسة هذه التحولات بين مناطق الخليج.

وقد يبدو من الطبيعي أن تبرز هذه التحولات والتجليات المصاحبة لها في الرواية العمانية في حقبة العقد الثاني من الألفية الثالثة على أساس أن الرواية العمانية حديثة النشأة ولم تعرف عمان الرواية إلا في حقبة متأخرة قياساً ببداية الرواية في الخليج العربي، ولا سيما الرواية في المملكة العربية السعودية والكويت والبحرين على وجه الخصوص. إذ إن الرواية العمانية والسرد عموما يتأخر حتى عن السرد في دولة الإمارات العربية المتحدة التي عرفت كتاباً على مستوى كبير من التطور وأخص بالذكر الكاتب الإماراتي علي أبو الريش الذي أصدر مجموعة كبيرة من الروايات التي جالدت لتظهر في ثوب قشيب يمس التطور والتجديد وهي تحلق بعيدا عن رصد المقدمات والتحولات الأولية في المجتمع. ولذلك نقول ليس غريبا أن نجد رواية (سيدات القمر) وهي تتوجه لتنزع قشور الماضي القريب عن طيات قوالب المجتمع الذي ترصده. بحيث يغيب عنا هنا ما سمي السرد المخاتل أو السرد المغيب أو السرد المشكوك فيه وإلى حد كبير لأن السارد هنا يختلف عن سارد رواية (الغريب) لألبير كامو – على سبيل التمثيل – الذي يعلن منذ البداية أنه لا يعي الزمن أو لا يعيره أهمية الذي يتضح من قوله في مستهل الرواية" ماتت أمي أو لعلها ماتت أمس،لا أدري،فالزمن يختلط عنده بين الأمس واليوم"(٥). في حين يحضر الزمان والمكان بتفصيليهما وبأحيان كثيرة في سرد رواية (سيدات القمر) وبما يجرنا وبلا غبار إلى عالم السرد الكلاسيكي جراً.

وكما يظهر فإن هذه الرواية قد ولدت في أكناف التحولات التي ألمت بالمجتمع العماني، على الرغم من أنها كانت ترصد حالات عاطفية بحتة ولكننا نستطيع ومن خلال ثلاث حالات عاطفية لثلاث شقيقات أن نرصد ما صاحب المجتمع العماني من تغيير وتطور على مدى حقبة زمنية طويلة أو تتجاوز ما معروف عنه في الرواية العربية التي تستغل أوقاتاً أقل مما نجده في هذه الرواية. وهذا ما جعلنا نستثمر الحقبة التي كشفت عنها الرواية لبيان ما أسفرت عنه التحولات الاجتماعية والثقافية في سلطنة عمان. وقبل ذلك لا بدَّ من عرض مضمون الرواية حتى نقف على أهم أحداثها ومصير أهم شخصياتها.

مضمون الرواية:

تدور أحداث الرواية في قرية العوافي العمانية وتحاول أن ترسم صورة لحياة الناس في هذه القرية وما يحيط بها، وقد اشتغلت الرواية على مدة زمنية طويلة على غير عادة الكثير من الروايات العربية، إذ امتدت الأحداث من مدة الثلاثينيات من القرن العشرين إلى ثمانينيات وتسعينيات ذلك القرن. والرواية على تماس مباشر مع التاريخ الحديث بحيث أنها رصدت الواقع العماني في الحقبة المشار إليها من دون أن يعني ذلك أنها تسجل وقائع التاريخ تسجيلاً حرفياً أو أنها نقلت التاريخ المشوب بنزعة القص فحسب وإنما نقلت حياة عائلات قرية العوافي التي تختلف بين سادة ملاك الأرض وبين التجار والعبيد الذين كان السادة يشترونهم ويربونهم في بيوتهم حتى ليصبحوا جزءاً منها من خلال قصص ثلاث شقيقات يعشن في هذه القرية القريبة من العاصمة مسقط في ظل ثقافة ذكورية سائدة ولا يستطيع أحد مقاومتها أو المساس بها. وقد اتجهت الرواية إلى ما يسمى المهمشين في المجتمع ونقلت أحوالهم الاجتماعية وما كان يدور بخلدهم، وأفضت بالحديث عن طبقات المجتمع العماني، ولا سيما طبقة العبيد وظاهرة الرق التي كانت موجودة في المجتمع العربي والمجتمع العماني بنحو خاص في الحقبة التي تستلهما الرواية. على الرغم من أن موضوع العبودية قد سقط فعليا وقانونيا في عمان في بداية السبعينيات من القرن العشرين ولكنه ظل موجودا في خط سير الرواية التي نشرت في العام ٢٠١٠ م. وتعلل الأديبة الحارثي نفسها هذه الظاهرة بقولها : إنه موجود بدواخلنا وتضرب مثلا له في الزواج الذي لا يتحقق بين أبناء ذوي هذه الأصول وبين أبناء الأسياد[٦]. وبدليل فشل زيجة الحفيدة (لندن) من ولد أحد العاملين عند أجدادها، وذلك يعلن على الملأ أن البون الاجتماعي بين طبقات المجتمع ما زال يتردد بين الأبناء والأحفاد وأنه قد أخذ مأخذاً كبيراً في صفوف مكونات المجتمع بلا استثناء بين صغيرها وكبيرها.

ولعل الثيمة المتكررة في الروايات العربية وهذه الرواية هي قصص الحب والغرام التي لا تنفك وهي تتردد في أثناء الروايات العربية وبصفة خاصة في الروايات التي تمثل الحقبة الأولى من نشأة الرواية العربية. ولا تختلف رواية (سيدات القمر) عن هذا النهج فقد كانت قصة أول الشقيقات وهي (ميا) التي وقعت في غرام علي بن خلف الذي شاهدته مرة واحدة فقط ولكنها ظلت متعلقة بحبه، بيد أن الأقدار لا تمهلها كثيراً فقد سافر الذي تعلقت به إلى لندن لغرض الدراسة، ولم تستطع أن تعلن عن موقفها منه بفعل الظروف الاجتماعية التي لا تسمح للفتاة أن تبوح بمشاعرها إزاء من تحب؛ بل ولا تسمح لها أن تدافع عن حبها. ولهذا فقد تزوجت من عبدالله بن التاجر سليمان وهو أول شخص تقدم لخطبتها، وقد نتج عن هذا الزواج ابنتها البكر التي أصرت هي على تسميتها (لندن)، مما يعني أنها لم تنس حبيبها الأول الذي هجرها إلى لندن. ويبدو أن هذا الغرس في الطفلة قد أتى أكله (فلندن) الابنة عندما كبرت وأصبحت طبيبة

حاربت من أجل من تحب وأصرت على الارتباط بمن هو أدنى من مستواها الاجتماعي حيث أن والد حبيبها كان يعمل أجيراً لديهم في مزرعة جدها، ولكنها فشلت في حبها.

وقد اشتغلت الرواية على هذه الثيمة كثيراً، إذ إن معظم الشخصيات النسوية تواجه المصير ذاته إلى الحد الذي تقرر فيه إحداهن ممارسة شهوتها من غير رابطة الزواج وهو ما فعلته نجية الملقبة بالقمر مع عزان أبي الفتيات الثلاث ميا وأسماء وخولة. فأسماء وهي الشقيقة الثانية قد تزوجت من خالد بن عيسى المهاجر الذي هاجر أبوه بعد الأحداث السياسية التي وقعت في السبعينيات بعمان إلى مصر، ولكنه يرتبط بأسماء عند عودة العائلة إلى عمان لتكون زوجة تقليدية تلد أربعة عشر طفلا ولم يتعد عمرها الخامسة والأربعين، في حين لم يستمر زواج البنت الثالثة والأخيرة (خولة) وينتهي بطلبها الطلاق من ناصر الذي أحبته كثيراً وفضلته على كثير من الخطاب الذين تقدموا لطلب يدها في غيابه عندما كان يدرس في كندا. ولكنه كان مرتبطا بفتاة كندية كعادة كثيرين مثله، لذلك ينتهي هذا الزواج بالفشل حتى وإن طردته تلك الفتاة الكندية وبالرغم من إنجاب خولة لخمسة أولاد، مما يضمر فجوة عاطفية تفتقر إليها الزيجات في الوطن العماني والوطن العربي على وجه العموم. وبذلك فإن هذه الرواية لم تشذ عن القاعدة المكررة التي تنظر إلى المرأة نظرة قاصرة وأدنى من المكانة التي تمنح للرجال في العادة.

وفي خلال هذه الأحداث المتلاحقة نستطيع أن نتبين مجموعة من التغييرات والتحولات التي مست الحياة الاجتماعية والثقافية التي أشارت إليها الرواية في عمان والتي نحاول الوقوف عليها أو على معطياتها من خلال عرض يستند إلى بسط مجموعة من القضايا المهمة التي نرى أنها كانت الموجهة للرواية ولما آلت إليه أحوال البلد برمته وليس واقع قرية واحدة منه فحسب، وهذه القضايا هي على النحو الآتي :

١- قضية المرأة ٢- قضية العبيد ٣- الحركة العمرانية والتعليمية في المجتمع العماني

٤- العادات والتقاليد ٥- العلاقات الأسرية والترابط الاجتماعي (تسجيل الواقع العماني من خلال الفن الروائي).

أولاً : قضية المرأة :

لم تشذ هذه الرواية عن القاعدة التي أشار إليها بعض الباحثين ومنهم الدكتور الكبير الداديسي عندما وجد أن "تيمة الجنس من أكثر التيمات هيمنة وبروزاً في معظم ما كتبت النساء"(٧). ويعلل تلك الكثرة وذلك التردد في الروايات العربية بأن " عدداً كبيراً من الروائيات العربيات يرين في الجسد مصدر تفوق يجب توظيفه في الصراع مع الرجل، أو اعتباره المسؤول عن دونية المرأة ومن ثم احتقاره وإهانته"(٨). ولذلك فهنّ- برأيه – قد اقتصرن على العلاقة الميكانيكية بين الذكر والأنثى وقلما انتقلن للتعبير عن مفهوم الحب

الصادق، كما كنا نجده في الروايات الرومانسية وحتى الكلاسيكية[٩]. بيد أننا لا نبالغ إذا قلنا إن هناك كماً هائلا من الإرث الثقافي الذي لا يمكن للمرأة أو حتى الرجل أن يتجاوزه إذا ما كتب عن المرأة، ولذلك فإن الكاتب عندما يزاول مهمة الكتابة لا بدَّ أن يتبلور أمامه هذا الإرث لينطلق في التعبير عنه. فضلا عن أن هذا الإرث ليس محليا فحسب، إذ يعترف رومان سلدان في عرضه لحركة الفمينزم أن "وضع المرأة ظل عبر التاريخ على هامش النظام الاجتماعي، وكان مفهوم الأنثوية عند أرسطو يعني الافتقار إلى بعض الخصائص العامة، كما نظر توماس الأكويني إلى المرأة في صورة رجل غير كامل، وتعتبر هذه المفاهيم أساسية في كثير من الثقافات العالمية حيث يصاغ الرجل في صيغة الكمال بينما ينظر إلى المرأة نظرة هامشية"[١٠]. وهذا ما يفضي إلى أننا إزاء معضلة عالمية وإنسانية يعاني منها البشر في أماكن وأزمان مختلفة ولم يقتصر فيضها على بقعة معينة من الأرض، ولكنها مع ذلك تتباين في الفهم والاحتواء بين بقعة وأخرى وبين زمن وآخر، وهي بطبيعة الحال تصل إلى غايات كبيرة في الأراضي العربية.

وقد يبدو من الغريب أن تتوجه الرواية العمانية إلى ما سمي المرحلة التاريخية بعد أن تجاوزتها الرواية العربية بمرحلة طويلة؛ إذ إن البون شاسع بين عمل الروائية العمانية جوخة الحارثي وبين عمل الأديب العربي نجيب محفوظ – على سبيل التمثيل – الذي اجتاز المرحلة التاريخية في رواياته عبث الأقدار ورادوبيس وكفاح طيبة ومن ثمَّ انعطف نحو أحداث الواقع " ليعكس صورة المجتمع الذي عاشه الكاتب بتسليطه الضوء على أهم السلبيات التي أفرزتها تلك المرحلة من أمراض اجتماعية خطيرة "[١١] ، في رواياته : القاهرة الجديدة وزقاق المدق وخان الخليلي وبداية ونهاية والثلاثية. فكما كانت هذه الأعمال تسجيلاً حياً للواقع المصري في الثلاثينيات وما تلاها من حقب زمنية نلفي هذه الأفكار تتردد في رواية (سيدات القمر) التي تتحدث عن حقبة الثلاثينيات من القرن العشرين إلى مرحلة الثمانينيات من القرن المنصرم. على الرغم من أن رواية (سيدات القمر) قد نشرت في العام ٢٠١٠. مما يعني أن هذه الرواية تجتر ما تردد في الرواية العربية منذ وقت طويل. إذ مالت هذه الرواية إلى الوقوف على أهم مفاصل المجتمع العماني وتشكيلاته وحاولت معالجة أهم القضايا التي يواجهها. على الرغم من ظهورها المتأخر، فكلتا الروايتين تشخصان القمع والكبت في شرائح المجتمع الذي يعالجانه، ولا سيما معالجة مشكلة المرأة التي باتت تقض مضجع المجتمعات الشرقية عموما والمجتمع العماني على وجه الخصوص، ومن ثمَّ فقد رصدت الرواية ما حصل من تغييرات في بنية المجتمع العماني، من خلال تصوير الحياة في أحد الأحياء الريفية.

تعد قضية المرأة من القضايا المكررة والمعادة في جل الروايات العربية؛ إلى حد أننا لا نكاد نلفي رواية لا تشير من قريب أو بعيد إلى المرأة أو تقوم على قضيتها. بيد أن المرأة تأخذ طابعاً آخر في الرواية العمانية وفي هذه الرواية تحديداً، إذ إن غالبية النساء في هذه الرواية مما يقع عليهن الحيف ويتعرضن إلى

موجة عارمة من المحبطات، ولعل ذلك يتفق وما توقف عنده عبدالله العروي عندما ربط ضعف الرواية العربية وتدني مستواها الفني بأهم خصيصة وهي دور المرأة الثانوي في الحياة والأدب بينما هي مستهلكة كبيرة للأدب في المجتمعات المتطورة، فضلا عن إشارته إلى أسباب أخر مثل تدني مستوى المعيشة والأمية الواسعة وضعف انتشار الكتاب والنشاط الهزيل لدور النشر(١٢). وهذا ما يمكن معاينته في قصص الشقيقات الثلاث اللائي تعرضن إلى الكبت تماشياً مع عادات المجتمع وتقاليده التي لا تفسح المجال للمرأة بالتعبير عن مشاعرها وعواطفها بدليل أن اثنتين من الأخوات الثلاث كتمن ما يجيش بداخلهن من عواطف إزاء من وقع الاختيار على أن يكون زوج المستقبل، وهو ما نلمسه بوضوح عند (ميا وأسماء) وبدرجة أقل عند الأخت الثالثة خولة على أساس أن خولة هي التي رفضت الخطاب الذين تقدموا لطلب يدها على أمل أن تقترن بابن عمها ناصر، ولكنها ما لبثت أن طلبت هي الانفصال عنه والطلاق بعد أن رزقت منه بخمسة أولاد بعد أن عرفت علاقاته مع غيرها، عندما كان يترك البلاد والأولاد بحجة العمل خارج البلد، ولكنه كان يعيش الخيانة الزوجية مع فتاة كندية. وهذا الشأن يتكرر عند السابقين، كما سنلاحظ في قضية علاقة الأب عزان مع نجية القمر، مثلما يتكرر مع الأولاد وهو ما سيتضح عند (لندن) ابنة ميا التي تصر على محاربة العادات والتقاليد وترتبط بمن هو أدنى منها عائليا (أبوه كان يعمل عند جدها) تطلب الطلاق وتنفصل منه بعد أن وجدته يمارس ساديته معها ككل الرجال على الرغم من أنهما كانا زميلين في كلية الطب وقد تخرجا سوية.

وهذا ما يعكس الحالة المأساوية التي تمارس بحق المرأة العمانية والعربية على حد سواء. إذ إننا نجد تأكيداً على هذه المسألة ليس في هذه الرواية وعند جوخة الحارثي فحسب وإنما عند كثير من الروائيات العربيات والخليجيات على نحو خاص، وليس بعيداً عن ذلك ما أشارت إليه الروائية الكويتية فوزية شويش السالم عندما ذكرت ذلك بصورة علنية ومباشرة ولا غبار عليها في غضون روايتها المهمة (سلالم النهار) بقولها " منذ وعيت على الدنيا أدركت أن النساء مخلوقات للكدح والتعب ولإراحة كل من حولهنّ، ولا نصيب لهنّ في الرفاهية والراحة"(١٣). وهو ما أسماه أحد الباحثين القمع الداخلي(١٤)، الذي يشكل الشريان الرئيس في الحياة العربية. وهذا ما يعكس نسقاً ثقافياً سائداً في مجتمعات الخليج العربي بحسب تعبير الدكتور عبدالله الغذامي عندما بحث عن الأنساق الثقافية في المجتمعات الخليجية(١٥) وكان دور الأدباء الخليجيين التعبير عن هذا النسق بأشكال وتعابير متباينة ولكنها تفضي جميعاً إلى منبت واحد ومتكرر.

ومنذ بداية أحداث رواية (سيدات القمر)فقد وجدنا (ميا) الشخصية الرئيسة في الرواية قد فقدت الأمل في أن تقترن بمن أحبت وهو علي بن خلف أو الذي وقع عليه اختيارها والذي " أمضى سنوات في لندن للدراسة وعاد بلا شهادة "(١٦)، ومن شدة تعلقها به فقد كانت تصر على رؤيته فقط، لكنها وافقت على الزواج بمن تقدم لخطبتها وهو عبدالله بن التاجر سليمان منذ أول وهلة. وهذا ما يعكس الحالة الاجتماعية

البائسة للمرأة العمانية، إذ إنها تغدو في مجتمعها وكأنها لا تختلف عن أية سلعة مكملة لحياة الذكور، وهو ما ينجلي من الحديث الذي دار بينها وبين أختيها خولة وأسماء وهو لا يختلف عن النظرة التي تجعل المرأة مكملة لحياة الرجل وحسب؛ وتبقى المرأة رهينة نظرة سادت في قديم الزمان بدليل أن ميا وأخواتها يستذكرن وصية ما قرأنه في كتاب عربي قديم هو (المستطرف في كل فن مستظرف) عندما أوصت امرأة إعرابية عروساً بأن تعتني بنفسها بالماء والكحل والاهتمام بالطعام والشراب وأن تضحك إذا ضحك زوجها وتبكي إذا بكى وترضى إذا رضي[١٧] ، في حين هي في داخلها تفتقد هذه الصفات، تقول " ومن يحزن لحزني أنا ؟ "[١٨]. وهذا ما يضمر نظرة المجتمع إلى المرأة بتفضيله الذكورة على حساب الأنثى. وما يحصل بين ذلك وخلاله هو اجترار لما كان يسود في الماضي وحسب، بمعنى أن هناك نسقا ثقافياً يتكرر بلا أدنى مقاومة من المتضررين منه وهو يعيش بتخفٍ بين شرائح المجتمع وطبقاته وأحيانا يعلن عن نفسه بوضوح.

والحالة ذاتها تتكرر مع أختها الأصغر منها (أسماء) التي وافقت على الزواج من خالد بن عيسى المهاجر بعد أن مال قلبها في البداية إلى مروان ابن عم زوج أختها (ميا) عندما "رأته في مناسبات قليلة وأحست بطهره وصفائه... فدفعها غموضه إلى الحلم به "[١٩] ، ولكنها توافق على خالد بعد أن رأت فيه أنه سيحقق رغباتها في الالتحاق بإحدى المدارس الثانوية كونه يسكن في العاصمة مسقط التي يتوفر فيها هذا النوع من المدارس للبنات بسنها على أمل أن "تتمكن من الالتحاق بالجامعة التي يقال إنها تبنى الآن"[٢٠].

ولعل هذه الحالة المأساوية لوضع المرأة هي التي أسهمت بتوليد اتجاه تصادمي مع المجتمع تمثل بشخصية (نجية) التي تلقب بنجية القمر لشدة جمالها؛ والتي انتفضت على الأعراف المكبلة للمرأة وارتبطت بعزان وهو والد الفتيات الثلاث وزوج سالمة، فحين أخبرته برغبتها بالارتباط به تأبط نعليه وفرَّ هاربا بأقصى سرعته باتجاه العوافي، ولكنها لم تكن تريد زواجاً رسمياً بقدر ما تريد إشباغ رغبتها الجنسية فحسب، إذ إنها تخبر صديقتها خزينة " من قال لك إني أريد أن أتزوجه ؟ القمر لا تؤمر أحداً عليها .. أنا لم أخلق لأخدم رجلاً وأطيعه .. يسرق حلالي ويمنع عني أخي وصاحباتي يوم يقول لا تطلعي، ويوم يقول لا تلبسي، ويوم يقول تعالي ويوم يقول روحي .. لا .. لا .. لا يا خزينة عزان سيكون لي ولن أكون له. سيأتيني حين أشاء ويذهب حين أشاء"[٢١]. إذ إن الحرمان والاستقواء على المرأة قد ولَّد ردّة فعل متطرفة وغير محمودة العواقب ولا سيما أننا قد وجدنا كثيراً من العبدات قد تعرضن إلى الجلد عقوبة على ممارسة الجنس خارج مؤسسة الزواج أو عندما تلد مولوداً بلا أب، مما سنتناوله في الفقرة اللاحقة من البحث.

ويبدو جليا أن هذا الكبت الذي تعاني منه المرأة لا يقتصر على هذا الجيل من الأبناء فقط، فقد مرَّ الآباء بأقسى الظروف وأشدها مرارة. ولعل حال أمهما (سالمة) لا يختلف عن حال بناتها، فقد نشأت الأم

في بيت عمَّها الشيخ سعيد بعد وفاة أبيها وبقاء الأم في بيت أخيها وقد منعها عمها الشيخ سعيد من العيش مع أمها لأنه لا يريد أولاد أخيه أن يربيهما الأغراب(٢٢). وبذلك فقد نشأت سالمة في بيت غير بيت أبيها وهذا ما أسهم بأن تفرض عليها مكابدات تضاف إلى مأساة فقدان الأب بالصغر، على الرغم من أن أمها كانت على قيد الحياة وأنها تعيش في بيت شقيقها، ولكن العم يرى في الخال شخصاً غريباً لا يقبل لابنة أخيه أن تعيش في كنفه.

وهذا يعني أن المرأة العمانية تعيش في حالة لا تحسد عليها، إذ تشترك النساء جميعاً في كونهن ممن هضم حقوقه وصودرت حرياته. ولعل هذا ما يذكرنا بقصة (كذبة إبريل) لسمر المقرن التي تلقي الضوء على الحياة الاجتماعية للمرأة الخليجية في المملكة العربية السعودية وما يحيط بها من أعراف اجتماعية وعادات وتقاليد وكلها تحد من قدرتها على الإبداع، إذ تنقلنا إلى عالم نوال التي تزوجت مرتين زواجا تقليديا من غير أن تتوفق فيهما ولكنها تجد ضالتها في العمل التطوعي الذي لا تحده حدود البلد الواحد وحين تنتقل إلى بيروت تتعرف هناك على أحمد الذي أصبح زوجها الثالث بعد قصة حب جمعتهما بعيداً عن قيود المجتمع الخليجي، ولكنها ما لبثت أن كشفت عن حقيقة أحمد الذي تبين إنه خائن ومهووس بالجنس مع فتيات من جنسيات مختلفة. وحين انكشف أمره طلب الصفح والسماح له بفتح صفحة جديدة وليعالج نفسه كونه مريضاً نفسياً ولكن الراوية تصدمنا عندما تقول " لم يكن هذا المشهد سوى أحد فصول كذبة إبريل" لتؤكد أن المرأة تنتقل من سلطة الأب إلى الأخ فالزوج من دون أن تنعم بحريتها الحقيقية، وهو ما يمكن أن نستعير له مصطلح (فواعل الخراب) الذي استعمله الدكتور عقيل عبدالحسين عندما تصدى للمحبطات التي تواجه الكاتب العربي(٢٣). وفي ذلك دلالة على أن المرأة الخليجية تعاني أكثر من غيرها من الخيانة الزوجية وأن الرجال يكادون أن يكونوا متساوين في توزيع الظلم على المرأة، فضلا عن تراكم الرصيد الثقافي السلبي تجاهها. ولذلك فقد ألفينا المرأة في رواية سيدات القمر تضحي بحبها الأول ولا تدافع عن مشاعرها وتبدو وكأنها مقتنعة بمصيرها وهذا ما لم نجده في معظم الروايات العربية التي تقف فيها المرأة بشموخ لتدافع عن قضيتها وتدفع عن نفسها قهر المجتمع والظروف الاجتماعية والثقافية التي سادت في المجتمعات العربية قروناً طويلة. وإزاء ذلك فإن المرأة في رواية سيدات القمر لم تسع "إلى نقض المرويات المتعالية التي تدعي الصحة والثبوتية والقوامة على الحياة والإنسان"(٢٤). كما وجدنا ذلك في الكثير من الروايات العربية.

وعلى الرغم من أن المرأة العمانية قد انزوت في خانة ضيقة من المجتمع لا تحسد عليها، فقد ألفينا طبقة أخرى في المجتمع العماني قد نالت نصيبا كبيراً من التهميش رجالا ونساء، وظلت طبقة مسحوقة حتى بعد أن صدر قانون من الدولة العمانية يجرم الرق والعبودية ويلغيهما هي طبقة العبيد التي سنتناولها في الفقرة القادمة من البحث بالاستناد إلى الرواية وإلى ما كان يسود في المجتمع العماني إلى حقبة متأخرة

من العصر الحديث. على أساس أن النسوية والسود هما من القضايا المترابطة في النقد الحديث ولا سيما في النقد الثقافي الذي يعير أهمية كبيرة لهاتين القضيتين في مواجهة السمات التي كانت مهيمنة على السرد(٢٥).

ثانيا : قضية العبيد :

من المعروف أن قضية استعباد الإنسان وتحويله إلى مجرد آلة يمارس بحقها أبشع أنواع الظلم والكبت والتنكيل وبلا مسوغ إنساني التي تتجلى في العبيد هي قضية قد عفا عنها الزمن منذ مدة ليست وجيزة في العالمين الحقيقي والأدبي؛ ولكن صداها ظل يتردد في رواية (سيدات القمر) كثيراً؛ لما لهذه القضية من تفشي في السلطنة وإلى وقت قريب على غير مناطق الخليج الأخر. فمنذ الصفحات الأولى للرواية نصطدم بممارسات لا إنسانية تجاه هذه الطبقة. ولكن المميز هنا أننا على امتداد الرواية لا نكاد نتحسس موقفا أو ظاهرة ما إلا وتذكرنا الكاتبة بهذه الطبقة بل أنها تعود إلى الأصول الأفريقية لها وتفسر كيفية وصولهم إلى عُمان. وهذا ما يتضح في أحد فصول الرواية(**) الذي خصص لهذا المنحى الذي بيَّن المأساة التي رافقت جلب هؤلاء العبيد من أفريقيا وهو ما يتضح في الحديث الذي دار بين حبيب وزوجته ظريفة التي اشتراها الشيخ سعيد ورباها واختلى بها ومن ثم زوّجها إلى أحد عبيده (حبيب) بعد أن اختلف معها، إذ يقول حبيب راداً عليها عندما حاولت منعه من الهجرة وترك البلاد قائلة له "بلادك وبلاد جدودك ؟ فقال " أي جدود يا ظريفة ؟ جدودك ليسوا من هنا، جدودك سود مثلك، من أفريقيا من البلد التي سرقوكم منها وباعوكم "(٢٦). ونتعرف على القصة الحقيقية التي خطف بها هؤلاء المساكين من بلدانهم الأصلية في ظل ظروف لا إنسانية . فحبيب لا ينسى تلك الرحلة كقول السارد :" لكن حبيباً لا يريد أن ينسى الرحلة المرعبة التي أنهت حياته الوادعة في مكران، حيث كان الصبي الثاني لأمه ذات الخمسة صبيان ، إنه يتذكر العصابات المحلية التي أغارت على قريتهم طمعا في المال أو تصفية لثارات قديمة، خليط التجار البلوش والعرب الذين اشتروهم على الساحل ..."(٢٧). وهكذا تتردد مقولات "نحن أحرار، سرقونا وباعونا " ويصرخ في قلب الليل، في أول الفجر، في حفلات الزار " أحرار ظلمونا"(٢٨).

وندرك أن هناك ممارسات لا إنسانية تجاه هؤلاء العبيد الذين كانت عمان إلى وقت قريب تعج بهم وقد كانوا محرومين من أبسط حقوق الإنسان إلى حد بعيد، ومن ذلك أن العبد لا يمكن أن يسمي أبناءه كما يسمي الأحرار أبناءهم. ولذلك فعندما أسمى سنجر ابنته البكر (رشا) ثارت ثائرة أمه ظريفة بالقول:" صاحت ظريفة :"أيش . سيقتلك التاجر سليمان .. تسمي على اسم أهله وأولاده؟ ..أنت جنيت يا ولد ؟ تكبّر راسك على من؟ .. من رباك وعلمك وزوّجك؟"(٢٩). مع علمها أن التاجر سليمان إنما ربى وعلم وزوج سنجر لمصلحته هو وليس لمصلحة العبد سنجر وكما يرد عليها ابنها بالقول" رباني وعلمني وزوجني لمصلحته هو، من أجل أني أخدمه وتخدمه امرأتي وأولادي "(٣٠).

وإذا ما رفضت العبدة من يتقدم للزواج منها فإنها ستكون عرضة لأبشع أنواع العقوبات الجسدية ومن ذلك ما حصل لأم ظريفة وهي عنكبوتة التي لم تكن قد بلغت الخامسة عشرة من عمرها حين أراد سيدها الشيخ سعيد تزويجها من عبده نصيب، فقد " حبسها الشيخ سعيد في زنزانة قديمة في القلعة حين رفضت النوم مع عبده نصيب الذي زوجها إياه. ظلت عنكبوتة أشهرا في الزنزانة يصل إليها طعامها كل نهار وزوجها نصيب كل ليلة كانت تصرخ ويحشو فمها بمصره لينال حقه الزوجي ثم خرجت من السجن حبلى بابنتها الوحيدة "[٣١]. التي هي ظريفة العبدة التي اشتراها فيما بعد التاجر سليمان.

أما الوظائف التي شغلها هؤلاء العبيد فلا تتعدى الوظائف المتعارف عليها في هكذا ظروف، فهم أما أن يمارسوا الرقص في حفلات الزار التي كانت تقيمها العائلات المالكة لهم أو التنظيف وحمل المياه على الرأس لمسافات بعيدة أو غسل الأواني وأطباق الطعام أو غيرها من الأعمال والمهن الثانوية والبسيطة.

وتزخر الرواية بصور عديدة توضح حالة طبقة الرقيق في المجتمع وما كان يمارس بحقها من تصرفات لا تمت للإنسانية بصلة بحيث تصادفنا مرات عدة ألفاظ صادمة من قبيل قول التاجر سليمان عن ظريفة " حلوة يا ظروف .. ناعمة يا ظروف "[٣٢].وعندما تأتي ظريفة من عرس أسماء فأن التاجر سليمان ينال منها ما يراه حقه" عادت ظريفة من عرس أسماء منهكة من الرقص والغناء والخدمة، لكنها وجدت التاجر سليمان مستيقظاً بانتظارها، إنه يحب خاصة أن يأخذها بعد الأعراس لزينتها ولروح التجاذب التي تشعها أجواء الزواج الجديد. كانت ظريفة ترغب في الراحة، لكنها أرضته على عجل فنام"[٣٣]. فضلا عن أنها قد تعرضت للعبث من أولاد الشيخ سعيد في فجر مراهقتها قبل أن يشتريها التاجر سليمان[٣٤]. وقد يتعدى ذلك إلى إشارات جنسية خادشة للحياء من قبيل قول ظريفة عندما أرادت تزويج ابنها سنجر فهي تقول غير مبالية بمحضر كثير من النساء " وأسالك أحسن أزوج سنجر ولا أحسن أخليه ليركبه الرجال"[٣٥]. مما جلب لها نظرات الازدراء والمقت من كثير من النساء الجالسات في المجلس ولا سيما سالمة وزوجة المؤذن. بل أننا نجد أن ظريفة نفسها كانت مباحة للتاجر سليمان وابنه عبدالله على حد سواء، إذ إنها حاولت إخفاء تلك العلاقة عندما قالت لعبدالله " إن أخبرت أحداً سيربطك أبوك ويعلقك مقلوباً في النخلة"[٣٦]. وحاولت دفعه مراراً للزنى بأي من بنات العبدات في بيت أبيه بحسب قوله وهو يصف تلك المحاولات "كانت المحاولات فجة ومجردة من أي عاطفة، ومعظم الفتيات كن خائفات أو طامعات في الهدايا"[٣٧]. ولذلك صار من الطبيعي أن نجد هناك من هو مجهول النسب أمثال حفيظة التي ولدت ثلاث بنات مجهولات النسب، وهذا ما عرضها إلى الجلد غير مرة، ومن هنا فلا نعجب حين ينظر الجميع إلى هذه الطبقة من الناس على أنهم أقل شأنا من غيرهم. وهذا ما يمكن الوقوف عليه من مواقف كثيرة في الرواية؛ ومنها أن سالمة تعنف العبدة ظريفة لأنها لم تأت مبكرة لرؤية ابنة ميا " واليوم ؟ أنت وين من الفجر ؟ ما قدرت تيجي تشوفي بنت سيدك "[٣٨].فضلا عن أنها تستقبل ظريفة جالسة متحججة بمرض

رجليها عندما وصلت ظريفة في حين تقف إجلالاً لزوجة المؤذن وهو ما جعل ظريفة تقول" وعندما تأتي زوجة المؤذن للدخول هرعت سالمة حتى باب الدهليز لملاقاتها . برزت ظريفة ... وهمهمت " واعجبي !! شفيت رجول سالمة وقدرت تقوم !!"[٣٩].

وقد بقيت هذه الحالة في أذهان كبار السن وهم يمارسونها لا شعوريا حتى بعد أن أصدرت الدولة في بداية السبعينيات(***) من القرن العشرين قرار تحرير العبيد ولكن والد عبدالله التاجر سليمان الذي كان يمتهن تجارة الرقيق وهي التي أوصلته إلى مجده المالي والتجاري كان يردد في مرضه الأخير وقبيل وفاته" يا ولد : اربط العبد سنجر حتى لا يعود يسرق خيش البصل مرة أخرى يا ولد ما تسمع أقول لك أدبه كي لا يعود للسرقة"[٤٠]. وحين يبلغه عبدالله بأن الحكومة قد حررت العبيد فإن الأب يزمجر " ما لها الحكومة؟ سنجر عبدي أنا وليس عبدها حتى تحرره. أنا اشتريت أمه ظريفة بعشرين قرشاً فضياً وأطعمتها في الوقت الذي كان فيه شوال الأرز بمائة قرش فضي "[٤١].

وفي ضوء ذلك فإن تناول هذه القضية في مدة الألفية الثالثة له ما يبرره فنيا على الأقل، إذ يعد من المتداول محليا وهو يدور في الأذهان باعتبار أن العبيد كانوا موجودين إلى وقت قريب في المجتمع، كما أن بعضهم كان يفضل حياة الرق على حياة العبودية، ولا سيما رقيق الطبقة الارستقراطية إلى الحد الذي وجدنا فيه أن الإدارة الزنجبارية كانت تهدد الأرقاء الكسالى وعديمي الفائدة بالعتق[٤٢]. فضلا عن أن هذا الموضوع يشترك مع موضوع القمع الذي يمارس في المجتمعات العربية قاطبة وكانت الرواية خير من يعبر عنه بوصفها الممثل لتجليات تبوح عن نفسها بوضوح من خلال السرد؛ وهنا انتقلت المعادلة التي نقرأ عنها دائما والممثلة بالمأساة الإنسانية التي يغدو فيها الصراع جلياً بين طرفين يمثل أحدهما القامع والآخر المقموع فيحاول الأول إذلال الآخر وقهره والانتصار عليه. وكما تجلى ذلك بوضوح في الرواية العربية وعند نجيب محفوظ على وجه التحديد؛ ولا سيما في روايته (القاهرة الجديدة) وحتى مرحلة الصمت التي امتدت من صدور الجزء الثالث من الثلاثية (السكرية) ١٩٥٢إلى ظهور روايته الملحمية (أولاد حارتنا) ١٩٥٩ كنقطة تحول في مسار العملية الإبداعية لهذا الكاتب الكبير[٤٣]. فكما استطاع نجيب محفوظ من تعرية المجتمع وفضح مكامن الفساد في روايته (القاهرة الجديدة) من خلال القامع والمقموع بتسليطه الضوء على نموذج (محجوب عبدالدايم) الممثل لقضية الدفاع عن المرأة والمهمشين في المجتمع[٤٤]. فقد تمكنت الكاتبة جوخة الحارثي من فضح أساليب المجتمع القامعة من خلال تسليطها الضوء على نموذج ظريفة وعائلتها جميعاً، بحيث يصبح الحديث عن العبيد ومعاناتهم بمثابة الحديث عن الحلقات الضعيفة في المجتمع العماني عموما.

وعلى الرغم من هذه الأزمات الاجتماعية الكبيرة شهد هذا المجتمع حركة عمرانية وتعليمية كبيرة ولا يمكن تغاضيها أو السكوت عنها؛ وهو ما سنعقد عليه الكلام في الصفحات اللاحقة.

ثالثاً: الحركة العمرانية والتعليمية في السلطنة :

قد يبدو من الغريب أن نؤكد أن ظاهرة التحول الاجتماعي والاقتصادي السريع الذي تشهده منطقة الخليج العربي قد أدى إلى نشوء الطبقة الوسطى التي يربط الناقد المجري جورج لوكاش ولادة الرواية في أوربا برحمها[٤٥] ، وهي كذلك في تأثيرها في الآداب العربية والخليجية على نحو الخصوص على اعتبار أن الخليج كان أكثر تقبلا لوجود هذه الطبقة بين فئاته الاجتماعية وقد كان لها الأثر المباشر بالفن والعمران على حد سواء؛ لأن أفرادها بحاجة ماسة إلى القراءة بعد أن انحسر اهتمامهم عن المشاكل العبثية ومشاغل الحياة ولذلك فهم بحاجة إلى ما يسد عقولهم بعد أن امتلأت جيوبهم وبطونهم.

وعلى الرغم من أن الرواية (سيدات القمر) قد عكست الحركة العمرانية النشطة في سلطنة عمان لكننا نجد البون شاسعا بين ما كانت عليه القرية والحارة الصغيرة وبين ما وصلت إليه في مرحلة لاحقة، بحيث يغدو البناء العمراني واضحا من بين طيَّات التغييرات التي بدأت تلم بالمجتمع العماني، فقد بدأت تتردد مقولات تمت إلى البناء والعمران مثل الطرق الجديدة والمصانع مثل قول الروائية "لقد فتحوا الطريق الجديد قبل خمسة عشر عاما لما فتحوا الطريق الجديد وبنوا المصنع "[٤٦]. ومع ذلك فأننا نلمس فرقاً بين السلطنة وبين بعض إمارات الخليج العربي كدبي مثلا التي يتردد صداها أكثر من مرة في الرواية، إذ نرى أن هناك بنايات شاهقة ولكنها لاتصل إلى ما وصلت إليه دبي. وقد حرصت الرواية على افساح المجال لتلاقي الأجيال الثلاثة وبيان ما ألم بالمدن العمانية من عمران وبناء حديث ودائما يصار إلى الموازنة بين البناء في عمان والبناء في دبي. إذ نلتقي بعبدالله وابنته لندن التي تقود هي السيارة وهي التي تتحدث بلا توقف كناية عن صبوة الشباب وتعلقهم بالمستجدات العمرانية " كنا في سيارتها الجديدة، وهي تقود بلا توقف، ثم قالت فجأة نروح شاطئ السيب؟. كانت التحديثات على شاطئ السيب قد اكتملت، والطريق الساحلي الجديد يمتد حوالي أربعة كيلومترات بأرصفة طويلة أنيقة لوقوف السيارات، وأرصفة بالأنترلوك للمشاة، وأعمدة الإنارة التي تحاكي برج العرب بدبي. قبل التحسينات كنت آتي مع أبي أثناء محاولاته لعقد اتفاقيات مع الصيادين لشراء بيوتهم المطلة على البحر وتحويلها إلى مجمع تجاري، كان مقتنعا أن مجمعات سابكو والأوكي سنتر وحتى مجمع الحارثي الذي افتتح إبان مرضه الأخير كلها بعيدة بالنسبة لسكان ولاية السيب كنت أقول له : لكن القوة الشرائية يا أبي ضعيفة، نحن لسنا في دبي"[٤٧].

وصار من الطبيعي أن نجد الناس الذين كانوا يهربون إلى المزارع في نهارات الصيف اللاهبة ويعودون مع الأنسام الطرية ليلا يمكثون في منازلهم بفعل وجود المراوح الكهربائية والمكيفات في بعض البيوت منذ مستهل ثمانينيات القرن المنصرم[٤٨]. ومن ثم نلفي ما سمي التشيؤ أو حب التملك الذي انصب هنا على تملك الأشياء التي كان الكثيرون محرومين منها بحيث صارت محل تجاذب بين المشترين " ألوان الأقمشة العجيبة التي بدأت تنهال على دكان حمدان والتلفزيونات التي لم تعد مقصورة على بيت الشيخ

سعيد والتاجر سليمان البيوت الطينية التي حلت محلها بيوت الأسمنت"[٤٩].ثم تتكرر جمل مثل " ينتقل عبدالله إلى بيتهم الجديد في مسقط "[٥٠]. وعندما تنهار البورصة تصرخ ميا " يعني لن نبني بيتاً بثلاثة طوابق "[٥١]. وبعد مرحلة انهيار البورصة نجد أن أحد أقرباء عبدالله ينصحه بشراء عمارة" اشتر عمارة العمارات أضمن شيء في هذا البلد هذا البلد كل شيء فيه يتغير بسرعة هائلة"[٥٢]. وكذلك فإن زايد الضابط يبني بيتاً لأبيه المعدم الذي كان يعيش عالة على الآخرين ولكن حاله يتغير عن السابق حين يصبح ابنه المشاغب في طفولته ضابطاً في الجيش لا بل وجدنا أن ميا تريد بيتاً بثلاثة طوابق في مسقط.. وحتى نجية التي ارتبطت بعلاقة غير شرعية بعزان تستبدل خيمتها ببيت من الأسمنت المسلح الذي اشترت له السجاجيد والمنادس من سوق مطرح[٥٣] ، بعد أن باعت أحد الإبل التي ورثتها عن والدها إلى أحد شيوخ أبو ظبي بعشرين ألف ريال. إلى غيرها من مستجدات عمرانية لم تكن موجودة في بداية الأحداث. ولم تقف الحركة العمرانية عند بناء البيوت الجديدة فحسب وإنما وجدنا الطرق المعبدة والمصانع والمدارس التي صارت مغنما في الحياة العمانية الجديدة والقوة الكهربائية التي عرفت بيوت العوافي جميعا بحيث صار يتردد على مسامعنا أن مصابيح النيون قد عرفت الطريق لكل بيت في العوافي[٥٤]. وصار الناس يفضلون العيش في العاصمة على حساب المدن الأخرى ومن ذلك ما يقوله سالم لأبيه عبدالله " أحب العاصمة، صحيح ليست كدبي لكن نجد فيها كل ما نريد"[٥٥]. وقد لمس عبدالله هذا الأمر عندما كان يصطحب والده في حياته فيردد الأب "العوافي بلدنا ما مسقط " ولكنه وبعد عشر سنين سيسمع من ولده سالم " مسقط بلدنا ما العوافي" الى حد قول لندن إنه لم يكن يربطهم بالعوافي غير المقبرة التي يصر أهل مسقط من أصول هذه القرية على دفن موتاهم فيها فقط.

بيد أن بناء المدارس في هذه المرحلة تبعه فجوة في هيكلية التعليم إذ وجدنا بعض التلاميذ ينتقل من الصف الأول الابتدائي إلى الصف الثالث، كما حصل مع عبدالله بن التاجر سليمان وما ذلك إلا لأن عمره كان كبيرا ولا يليق به أن يكون مع الأطفال الذين يصغرونه. إذ قال له المعلم " أنت كبير جدا على الصف الأول " ويرد " ما حيلتي والمدرسة لم تفتح إلا وأنا كبير جدا"[٥٦]. وكان ذلك مدعاة لأن ينتقل عبدالله إلى الثالث الابتدائي، فضلا عن أنه كان يحسن القراءة والكتابة. أما تعليم البنات فهو يقتصر على البنات اللاتي لا تتجاوز أعمارهن عشر سنوات " أسماء تتذكر اليوم الذي افتتحت فيه المدرسة في العوافي قبل بضع سنين، لم يسمح للبنات الأكبر من عشر سنين بالدخول إلا في فصول محو الأمية التي افتتحت لاحقاً"[٥٧]. وهذا كله يعكس بداية الانتقال إلى الحياة الجديدة التي كان العمران والتعليم أحد مبرراتها المهمة.

رابعاً: العادات والتقاليد:

تطالعنا في مجتمع العوافي والمجتمع العماني عموما عادات وتقاليد اجتماعية كثيرة جداً، بعضها قد عفا عليه الزمن وبعضها ظلَّ مستمرا في المجتمع. وقد تضافرت هذه العادات والتقاليد مع ما أشرنا إليه سابقاً في سبيل كشف عرى أزمات المجتمع وفضح تناقضاته. ولعل من بين تلك التقاليد التي حاولت الرواية تعريتها والوقوف بوجهها هو مسألة النسب والأصل العريق أو الغني الذي لا ينبغي لأحد أن يحتك به أو يتصاهر مع الأنساب الأقل شأنا منه. وقد انعكس ذلك في الرواية برفض الجدة سالمة لزواج حفيدتها (لندن) من ابن البيدار أحمد الذي كان والده عاملا عندهم ، إذ تقسم " إنها ستذبح حفيدتها إن تزوجت ابن البيدار"[٥٨] ، وقد وصل الأمر إلى حد تعنيفها بشدة. وهذا ما يمثل الهوة الفاصلة بين جيلين جيل الأجداد الذي يتمسك بعاداته وتقاليده وجيل الأبناء والأحفاد الذي يثور على هذه الأعراف ويحاول بناء حياة جديدة على أنقاض حياة الآباء. ولكي تثبت الرواية أن هذه الأعراف متمكنة من الأجيال جميعا فلم تتمكن تلك العلاقة من الاستمرار والعيش ووئدت قبل أن ترى النور ويتم الزواج المعلن وانتهت عند كتب كتاب الزواج فقط. وذلك لأن لندن وجدت في زوجها القادم نسخة لا تختلف عما ألفته عند غيره مما اضطرها إلى طلب الطلاق وفسخ ما كان بينهما على الرغم من توسلات خطيبها الدكتور أحمد الذي كان يدرس معها في كلية الطب. مع أنها حاولت في البداية أن تكافح وتجالد المقربين منها وهو ما سبب لها الاصطدام بعائلتها ومن ثم عرّضها للضرب وكسر هاتفها النقال وكل ذلك لأنها كانت تأمل أن تحيي علاقة بعيدة عما تعارف عليه المجتمع .

إن هذه العادات المتمكنة في النفوس قد جعلت بعض العوائل ترفض أن ترفع قضية في المحكمة إزاء من اعتدى على شرف ابنتهم؛ وهذا ما لمسناه من قضية اغتصاب (حنان) زميلة لندن التي تعرضت للاعتداء الجنسي عندما كانت في سكن المعلمات بلا أدنى مسوغ لهذا الشأن إلا الخوف من الفضيحة وأن ابنتهم ستبقى بلا زواج طبقاً لأعراف المجتمع وتقاليده حتى وإن لم يكن لها ذنب أو جريرة بما اقترف ضدها[٥٩]. كما أن هذه التقاليد هي نفسها التي جعلت زايد يعيد الخادمة الهندية إلى بلدها عندما أحضرها لرعاية والده والاهتمام به لكنه مارس الفاحشة معها "وحين ارتفعت بطنها بحمل واضح جاء زايد وأعادها لبلادها"[٦٠]، وهي نفسها العادات والتقاليد التي جعلت أم عبدالله متوارية عنه مدة طويلة وعندما يسأل عنها كان يقال له إن الجن قد غيبوها ولكننا نصدم في آخر أحداث الرواية أنها لم تمت بفعل الجن وإنما بوشاية من أخت زوجها عندما شاهدتها مع سليم عبد الشيخ سعيد تحت شجرة الريحان وهو ما كان مدعاة لاختفائهما من الحياة والوجود نهائيا[٦١].

وقد نجد ترديداً لعادات مجتمعية وهي تضرب بمحليتها في الرواية؛ ومن ذلك ما أشارت إليه الرواية من تقاليد الولادة المتعسرة، إذ نجد الأم تسقي ابنتها الحامل الزيت المعطن المتخثر، والماء المخلوط بتراب

قبر، وماء تراب مسجد مهجور، وتسقيها السدر المذاب والعسل الذي قرأ عليه القاضي يوسف سورا من القرآن[٦٢] .. إلخ من معتقدات شعبية يعتقد بها كثير من أفراد المجتمع وأبنائه. فضلا عن عادات أخر مثل احتجاب المرأة بأسبوع كامل قبل زواجها وهكذا فعلت (ميا) التي امتنعت عن مخالطة الناس لمدة أسبوع ولم" ترها جارة واحدة حتى ليلة العرس"[٦٣]. وقد بقي كثير من أبناء المجتمع مرتبطا بعاداته وتقاليده وهي تضرب عميقا بمحليتها ومن ذلك أن بعض العوائل تقضي حاجتها خارج المنزل الجديد على الرغم من أنه مزود بأكثر من حمام وهو ما يمكن أن نلفيه في جيران نجية الذين "سخرت علناً من جيرانها الذين بنوا بيتاً بطابقين وظلوا يقضون حاجتهم تحت شجيرات السمر الصحراوية خارج البيت الجديد المزود بخمسة حمامات"[٦٤]. مما يعكس توجهات المجتمع البدائية والمعشعشة بالنفوس والعقول.

ولعل قضية الإيمان بالجن من القضايا المهمة والمترددة في المجتمع العماني. إذ إن هذه القضية ترتبط بالتفكير الجمعي الذي ينتقل مباشرة لتفسير ظواهر طبيعية أو حياتية من خلال الجن الذي قد يؤثر على البشر ويصل الأمر هنا إلى تقديم الطعام للجن كما فعلت ظريفة عندما جلبت صينية الأكل وجلست في العراء وقالت بصوتها الجهوري " يا بقعيوة يا بقعيوة .. هذا أكلك ودعي لنا أكلنا ، هذا نصيبك ودعي لنا نصيبنا هذا من خراثة ميا بنت سالمة، دعيها في حالها، ولا تضريها ولا تضري المولودة"[٦٥]. وتشير الرواية إلى أنها كانت قد فعلت الأمر نفسه قبل مدة وجيزة مع زوجة ابنها النفساء وقامت به من قبل مرات عدة. لأن الجنية بقيعة "تختص بافتراس كل نفساء لا تطعمها من طعامها"[٦٦]. والخراثة هو بقايا طعام النفساء، مما يدل على تمكن هذه العادة من نفوس أهل المنطقة واعتقادهم بها. وقد يتعدى الأمر إلى الاعتقاد بعمل الشيطان ومشاركته البشر في تجليات الحياة؛ ومن ذلك ما تعرضت له سيارة الشيخ مسعود عندما رمتها أمه بحجارة كبيرة وكسرت إحدى نوافذها لأنها تعتقد أنها من عمل الشيطان[٦٧]. وذلك كله يفضي إلى معتقدات كامنة ومتغلغلة في النفوس ومن الصعب تغييرها أو تجاوزها بحال من الأحوال.

الخاتمة:

عرضت رواية سيدات القمر مجموعة من تراكمات البيئة العمانية المحلية بسرد ينهض أساسا على الحب والعلاقات العاطفية ومنه يتشظى إلى تجليات اجتماعية واقتصادية وسياسية. وقد كشفت العلاقات العاطفية عن الواقع العماني على مدى حقبة زمنية طويلة لم نكد نلمسها إلا في النادر من الروايات العربية قاطبة. وقد تمخضت تلك العلاقات العاطفية عن فجوة سلبية امتدت على مدار حكايات الشقيقات الثلاث الأساسية في الرواية فضلا عن حكايات وقصص العبدات وأبناء الجيل اللاحق لجيل الآباء، وهذه الحكايات والقصص تؤول في الغالب الأعم إلى الفشل والكبت والحرمان. ولذلك فقد ألفينا واقعاً مزرياً ومحبطاً يحيط بالمرأة العمانية، وبموجب هذا الواقع ظلت المرأة بمعاناة مستمرة على مستوى ثلاثة أجيال تمكنت الرواية من تغطيتها. وقد أفضى ذلك الواقع إلى ممارسات سلبية بحق المرأة وبحق من هم بمستواها

ولا سيما الطبقات المسحوقة والكادحة وطبقة العبيد التي كانت وإلى مدة قريبة تعاني من الرق والعبودية في السلطنة وقد بقيت آثار تلك المعاملة غائصة في النفوس حتى وإن زعم البعض بذوبانها أو تفتتها وانحسارها من الواقع.

ومن جانب آخر فقد وقفت الرواية على النهضة العمانية الحديثة والإعمار الذي واكب الحياة الحديثة، ولذلك تردد ذكر المصانع والشوارع المعبدة والسيارات الحديثة والعمارات والأسواق الحديثة والبيوت ذات الطوابق المتعددة. وكلها تفضي إلى الواقع الحديث والمعاش مع أننا نجد أن العمران والحياة المدنية تتخلف عما هو موجود في بلدان الخليج الأُخر ولا سيما في دبي التي نجد الرواية تذكرها أكثر من مرة على سبيل الموازنة بين مستوى البناء والعمران فيها وبين البناء والعمران في عمان.

ولم يستطع الإنسان العماني على الرغم من التحولات الاجتماعية والثقافية التي شهدتها السلطنة على مدى العقود التي غطتها الرواية التخلي عن عاداته وتقاليده وظلت هذه العادات تنبس بين فينة وأخرى لتطل في كثير من مفاصل الرواية وهي تدل على أن الإنسان العماني ما زال بحاجة لأن يعبد طريقه بمنارة العلم ويعزف عن مخلفات الماضي غير الصالحة للحياة الجديدة.

الهوامش :

*- الكاتبة جوخة الحارثي أستاذة جامعية في جامعة السلطان قابوس في مسقط باختصاص الأدب العربي، أصدرت ثلاث مجموعات قصصية هي (مقاطع من سيرة لبنى إذ آن الرحيل، وصبي على السطح، وفي مديح الحب)وثلاث روايات هي (منامات، وسيدات القمر، ونارنجة) ومجموعة قصص للأطفال هي (عش للعصافير، والسحابة تتمنى، وفوفو والألوان) وقد ترجمت بعض أعمالها إلى الإنجليزية والألمانية والإيطالية والكورية والصربية. ولكن الحدث الأكبر في حياتها الأدبية هو فوزها بجائزة مان بوكر العالمية في سنة ٢٠١٩عن روايتها سيدات القمر. وهي أول روائية عربية تفوز بهذه الجائزة. كما نالت جوائز عديدة ومنها جائزة السلطان قابوس للثقافة والفنون والآداب عن روايتها نارنجة عام ٢٠١٦.

١- تحولات الخطاب النصي – مقاربات في المشهد الإبداعي العماني- عبدالرحمن مجيد الربيعي: المقدمة :٥.

٢- ينظر بحثنا بدايات التحديث في المجتمع السعودي وملابساته من خلال رواية غراميات شارع الأعشى، دراسة في ضوء النقد الثقافي، م. آداب البصرة ع(٨٤)لسنة ٢٠١٨.

٣- ينظر رواية النبيذ رؤية أصوات متواشجة لتاريخ العراق الحديث- د. أماني فؤاد: ٢٦، نقلا عن المفاهيم الأساسية في فلسفة الفن- تايجر س . روهولت، ترجمة عبده الريس :١٦٧.

٤- ينظر مساءلة النص الروائي في السرديات العربية الخليجية المعاصرة- الرشيد بو شعير :٧.

٥- ينظر السرد المشكوك فيه: عندما يفقد القارئ الثقة بالسارد – حسن سرحان ، صحيفة القدس العربي ٢١/مايو-٢٠٢٠ alquds.co.uk.com

٦- ينظر سيدات القمر رواية عمانية تناقش شخصيات مهمشة في المجتمع ، ملحق جريدة الاقتصادية الاثنين ٩ أغسطس ٢٠١٠بموقع www.aleqt.com

٧- أزمة الجنس في الرواية العربية بنون النسوة: ٨.

٨- أزمة الجنس في الرواية العربية بنون النسوة-: ٨.

٩- ينظر أزمة الجنس في الرواية العربية بنون النسوة: ٨-٩.

١٠- نظرية النقد الأدبي الحديث- د. يوسف نور عوض: ٤٠.

١١- المرحلة الاجتماعية في روايات نجيب محفوظ (نقد وتحليل) د. هيثم عباس سالم : ٩٣.

١٢- ينظر الآيديولوجية العربية المعاصرة : ١٥٩.

١٣- سلالم النهار : ٢٧.

١٤- ينظر محنة الذات بين السلطة والقبيلة- دراسة لأشكال القمع وتجلياته في الرواية العربية - محمد رضوان: ١٥.

١٥- نقد ثقافي أم نقد أدبي : ٦٤.

١٦- سيدات القمر :٦.

١٧- سيدات القمر :٥.

١٨- سيدات القمر :٦.

١٩- سيدات القمر :١٥٠.

٢٠- سيدات القمر :١٥٢.

٢١- سيدات القمر :٤١.

٢٢- سيدات القمر :١٥٤.

٢٣- ينظر السرد والتبرير في نماذج من الرواية العراقية الحديثة (دراسة نقدية): ٥.

٢٤- المرجع السابق: ٦.

٢٥- ينظر فضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب -د. سمير الخليل : ١٨.

**- لم ترقم الروائية روايتها بالطريقة المعتادة بالأرقام ولم تعنون لفصولها أيضا وإنما وزعتها على فقرات وأجزاء بلا عنوانات وهذه طريقة غير مألوفة في عالم القص العربي والخليجي على حد سواء.

٢٦- سيدات القمر :١١٦.

٢٧- سيدات القمر :١١٦.

٢٨- سيدات القمر :١١٦.

٢٩- سيدات القمر :١١٨و٦٢.

٣٠- سيدات القمر :٩٨.

٣١- سيدات القمر :٦٢.

٣٢- سيدات القمر :١٥.

٣٣- سيدات القمر :١٧٦. وهو هنا يخالف ما تعارف عليه في عمان وكما يشير الدكتور محمد مسعود أبو سالم إلى أن " أن النساء المعتوقات في عمان كن يتزوجن بإذن من أعتقهن، ولكن متى تم الدخول بهن فلا ولاية له عليهن" الرقيق في سلطنة عمان وزنجبار من خلال الوثائق : مع دراسة ونشر: ١٠.

٣٤- سيدات القمر :١٧٧.

٣٥- سيدات القمر :٢٤.

٣٦- سيدات القمر :٢٨.

٣٧- سيدات القمر :٤٦-٤٧.

٣٨- سيدات القمر :١٩.

٣٩- سيدات القمر :٢١.

***- أشار الدكتور محمد مسعود أبو سالم إلى مجموعة من الاتفاقيات التي عقدتها بريطانيا مع سلطنة عمان تلغي بموجبها تجارة الرقيق بدءا من اتفاقية عام ١٨٢٢مع سعيد بن سلطان وفي عام ١٨٤٥ منع تصدير الرقيق من أفريقيا إلى عمان وأصدر السيد برغش بن سعيد تشريعا في عام ١٨٧٢بغلق أسواق العبيد في شرق أفريقيا كافة. ومن ثم تم توقيع معاهدة ١٨٧٣لتحريم تجارة الرقيق تحريما تاما في أراضي السلطنة كافة، ثم توجت بعام ١٨٩٧ الذي فرض فيه السيد حمود حظراً كاملا على الرق وقام بتحرير جميع الرقيق على أرض زنجبار.ينظر الرقيق في سلطنة عمان وزنجبار من خلال الوثائق : مع دراسة ونشر: ٨-٩.

٤٠- سيدات القمر :١٤.

٤١- سيدات القمر :١٥.

٤٢- ينظر الرقيق في سلطنة عمان وزنجبار من خلال الوثائق : مع دراسة ونشر: ٩.

٤٣- ينظر محنة الذات بين السلطة والقبيلة - دراسة لأشكال القمع وتجلياته في الرواية العربية - محمد رضوان: ١٥.

٤٤- المرجع السابق: ١٦- ١٧.

٤٥- مساءلة النص الروائي في السرديات العربية الخليجية المعاصرة: ٨.

٤٦- سيدات القمر :١٢.

٤٧- سيدات القمر :٥٥-٥٦.

٤٨- ينظر سيدات القمر :٦٠.

٤٩- سيدات القمر :٧٦.

٥٠- سيدات القمر :١٠.

٥١- سيدات القمر :٢٨.

٥٢- سيدات القمر :٢٨.

٥٣- سيدات القمر :٤٢.
٥٤- ينظر سيدات القمر :، ١٢ ، ٧١.
٥٥- سيدات القمر :٢٨.
٥٦- سيدات القمر :١٦.
٥٧- سيدات القمر :٣٤.
٥٨- سيدات القمر :٥٤.
٥٩- سيدات القمر :٥٧.
٦٠- سيدات القمر :٦٦.
٦١- سيدات القمر :٢١٣.
٦٢- سيدات القمر :١٧٧.
٦٣- سيدات القمر :١٤٦.
٦٤- سيدات القمر :٤٢-٤٣.
٦٥- سيدات القمر :٦١.
٦٦- سيدات القمر :٦٠.
٦٧- سيدات القمر :١٠٩.

مصادر البحث ومراجعه :

١- أزمة الجنس في الرواية العربية بنون النسوة- الكبير الداديسي، مؤسسة الرحاب الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت ، لبنان، ٢٠١٧.
٢- الأيديولوجية العربية المعاصرة – عبدالله العروي، دار الحقيقة، بيروت، ط(٣) ١٩٧٩.
٣- بدايات التحديث في المجتمع السعودي وملابساته من خلال رواية غراميات شارع الأعشى، دراسة في ضوء النقد الثقافي – د. صباح عبدالرضا أسيود، مجلة آداب البصرة، ع(٨٤) لسنة ٢٠١٨.
٤- تحولات الخطاب النصي – مقاربات في المشهد الإبداعي العماني- عبدالرحمن مجيد الربيعي، نشر الجمعية العمانية للكتاب والأدباء مسقط ودار الفرقد – دمشق، ٢٠١١.
٥- حكايات عراقية دراسات في السرد العراقي المعاصر- تحرير د. إشراق سامي عبدالنبي ، مجموعة مؤلفين منشورات مؤسسة سكولار لدراسات اللغة والأدب والنقد، دار السياب للطباعة ، ٢٠٢٠.
٦- الرقيق في سلطنة عمان وزنجبار من خلال الوثائق : مع دراسة ونشر- د. محمد مسعود محمد أبو سالم ، بحث الكتروني.
٧- السرد المشكوك فيه: عندما يفقد القارىء الثقة بالسارد – حسن سرحان ، صحيفة القدس العربي ٢١/مايو- ٢٠٢٠ alquds.co.uk.com.

٨- السرد والتبرير في نماذج من الرواية العراقية الحديثة (دراسة نقدية)- د. عقيل عبدالحسين، سلسلة نقد، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة – بغداد،٢٠١٨.
٩- سلالم النهار – فوزية شويش السالم، دار العين، القاهرة – ٢٠١٢.
١٠- سيدات القمر – جوخة الحارثي، دار الآداب للنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠١٠.
١١- سيدات القمر رواية عمانية تناقش شخصيات مهمشة في المجتمع ، ملحق جريدة الاقتصادية الاثنين ٩ أغسطس ٢٠١٠بموقع www.aleqt.com .
١٢- فضاءات النقد الثقافي من النص إلى الخطاب – د. سمير الخليل ، دار ضفاف للنشر للطباعة والنشر والتوزيع ، الشارقة – بغداد ٢٠١٨.
١٣- كذبة أبريل- سمر المقرن ، دار مدارك للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠١٧.
١٤- محنة الذات بين السلطة والقبيلة- دراسة لأشكال القمع وتجلياته في الرواية العربية- محمد رضوان، منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق ٢٠٠٢.
١٥- مساءلة النص الروائي في السرديات العربية الخليجية المعاصرة – الرشيد بو شعير، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي ٢٠١٠.
١٦- نظرية النقد الأدبي الحديث – يوسف نور عوض، دار الأمين للنشر والتوزيع، القاهرة،١٩٩٤.
١٧- نقد ثقافي أم نقد أدبي؟ د. عبدالله محمد الغذامي وعبدالنبي اصطيف، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر- دمشق ٢٠٠٤.